﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠١)

تفنيد تهمة إلقاء الشيطان على لسان المصطفى ﷺ

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

(النحل)

من دروس: حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد
المصلح الموعود رضي الله عنه
الخليفة الثاني لحضرة المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

التفسير:

اعلم أن ضمير الغائب للواحد (به) في قوله تعالى ﴿هم به مشركون﴾ يمكن أن يكون عائدًا على كلمة "الرب" المذكورة من قبل في قوله تعالى ﴿على ربهم يتوكلون﴾، فيكون المعنى: أن الشيطان لا يملك السلطة إلا على الذين يشركون بالله.

وقد يكون هذا الضمير راجعًا إلى الشيطان، فالمعنى: أنهم يقعون في الشرك بسبب إغواء الشيطان.

لقد نبّه الله تعالى بذلك أن الشيطان يمارس سلطته على أصحابه وأعوانه. فمن استعاذ بالله ﷻ فكأنما أعلن عداوته للشيطان، وهكذا خرج عن تصرف الشيطان وسلطانه.

لقد تبين من ذلك أيضًا أن قوله تعالى ﴿فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله﴾ لا يخص النبيَّ ﷺ بل غيرَه، وأن قصة إلقاء الشيطان على لسانه ﷺ كلمات الشرك قصة ملفّقة باطلة؛ ذلك لأنه تعالى يصرّح هنا أن الشيطان يتسلط على الذين يتخذونه وليًّا، وليس على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون،

وقد أعلن النبي ﷺ مرارًا وتكرارًا أن لا سند له ولا عماد إلا الله وحده ﷻ.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢)

التفسير:

الآية هي في الأصل العلامة والدليل، وإن أُطلقت أيضًا على جُمل القرآن الكريم، لأن كل جملة منه تمثّل في حد ذاتها علامة للهداية؛ ولكن هذا المعنى الثاني ليس حقيقيًّا، إذ لا نجد القرآن قد استخدم الآية بهذا المعنى بشكل قطعي. لا شك أنه يبدو في بعض مواضع القرآن وَكأن كلمة "الآية" قد استُعملت هناك بمعنى الجملة، ولكن هذا ليس بأمر قطعي، إذ يمكن أن يراد بالآية هناك العلامة والدليل أيضًا. غير أن المسلمين قد استعملوها منذ البداية بمعنى الجملة حيث كان الصحابة يسمّون الجُمل القرآنية آيات، كما نجد هذا الاستخدام في كلام النبي ﷺ أيضًا (البخاري: كتاب الجهاد وكتاب فضائل القرآن). فاشتبه الأمر على بعض المفسرين بسبب هذا الاستخدام، ففسّروا هذا اللفظ بمعنى الجملة القرآنية حتى في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، فقالوا أن المراد أن الله تعالى كلما نسخ آية من آيات القرآن وأنزل مكانها غيرها قال الكفار للنبي ﷺ: إنما أنت مفتر على الله تعالى. لو كان القرآن من عند الله لما اضطُررت لنسخ آياته؟ (تفسير القرطبي)

ولكن هذا المعنى ليس بصحيح في رأيي، إذ ليس من الثابت تاريخيًّا أن آية من القرآن استُبدلت بآية أخرى، وإلا لشهد على ذلك مئاتُ الحفّاظ الذين كانوا قد حفظوا القرآن عن ظهر قلب في حياة النبي ﷺ، ولقالوا: لقد حَفَّظَنا رسولُ الله ﷺ في أول الأمر آية فلانية، ثم ألغاها وحفّظنا مكانها آية كيت؛ مما يمثّل برهانًا قطعيًّا على أن كل الأفكار الرائجة حول نسخ آيات من القرآن الكريم إنما أساسها الظن، وليس العلم والواقع. إنني لا أنكر أن بعضًا من الأحكام قد استُبدلت في زمن النبي ﷺ، ولكني لم أجد أية شهادة تدل على أن حكمًا من الأحكام نزل في القرآن في البداية بشكل ثم استُبدل بحكم آخر. وأرى أن الأحكام التي كانت ذات صبغة مؤقتة قد نزلت على النبي ﷺ بوحي منفصل عن وحي القرآن، فلم يتطلب الأمر تبديل أي حكم نزل في الوحي القرآني.

ويمكن أن يتساءل هنا أحد: إذا لم يحدث أي تبديل ولا تغيير في آيات القرآن الكريم فماذا تعني هذه الآية إذن؟

والجواب: أن المعنى الحقيقي الذي أراده القرآن الكريم على العموم لكلمة "الآية" هو العلامة السماوية، وهذا هو المعنى المراد هنا. فالله تعالى يعلن هنا أن من سنتنا أن نبدل علامة سماوية بعلامة أخرى، لأننا الأعلم أيُّ العلامات والمعجزات أكثر تلاؤمًا مع الظرف والموقف، ولكن الكفار لا يلبثون لجهلهم أن يعترضوا ويقولوا للرسول: إنك مفترٍ، مع أنه ليس في هذا ما يدعو للطعن.

وهذا هو الناموس الإلهي الذي تجلى دائمًا في زمن كل نبي ورسول. ذلك لأن الله تعالى يخبر كل رسول بأنباء إنذارية تكون في الواقع مشروطة بشروط، فلو أن القوم غيروا حالة قلوبهم فقد يلغي الله بعض هذه الأنباء التحذيرية كليةً، ومثاله ما حدث بقوم يونس عليه السلام، حيث أخبرهم بهلاكهم الموشك، ولكنه تعالى ألغى قرار هلاكهم نتيجة توبتهم (يونس: ٩٩). فهذا هو القانون الإلهي العام

فيما يتعلق بالأنبـــاء التي فيها إنذار وتخويـــف، فلو أن أعداء الرســـل تابوا فإنه تعالى يلغي الإنذار ويلغي العذاب.

أما الأنباء المتعلقة بغلبة نبي وأتباعه فلا تُلغَى أبدًا، بل لا بد من تحققها؛ غـــير أن الأمة التي قطـــع الله معها وعدًا من الوعـــود إذا قصّرت في تقديم التضحيات أو في الطاعة فمن ســـنة الله تعالى أنه يؤجّل الوفاء بما وعـــد؛ ومثال ذلك ما حدث بقوم موســـى عليه السلام، حيـــث خرج بهم من مصر – بحســـب وعد من الله ﷻ – ليدخل بهم الأرض المقدسة فاتحًا، ولكنـــه ﷻ أجّل تحقيق هذا النبأ لهم أربعين سنة جراء عصيانهم المتكـــرر لتعليمـــات نبيهم. ولقد ســـجل القرآن هـــذا الوعد الإلهي بلسان موســـى كالآتي: ﴿يا قوم ادْخُلوا الأرضَ المقدَّسةَ التي كتَبَ الله لكم﴾ (المائدة: ٢٢)، ثم ذكر عصيانَ اليهود لموسى عليه السلام والقرارَ الإلهي بحرمان الأرض عليهم أربعين سنة، في قوله تعالى لموسى: ﴿فإنها محرَّمةٌ عليهم أربعينَ ســـنةً يَتيهُون في الأرض فـــلا تَأْسَ علـــى القوم الفاسقينَ﴾ (المائدة:٢٧). مما يعني أن هذا النبأ والوعد قد أُجّل لبعض الوقت، ولكنه تعالى لم يُلْغِه كليةً، لأن الله لا يُخلف الميعاد.

ووفق هذه الســـنة المتعلقة بعذاب الكفار كلما ألغى الله نبأ من الأنباء أثار الكفار ضجـــة بأن صاحبهم مفتـــرٍ كذاب. لمـــاذا لم يتحقق ما أنذرَنا به لـــو كان من الصادقين. وكان أعداء النبي ﷺ أيضًا يثيرون مثل هـــذه المطاعن، فرد الله عليهم بأننا نـــــزل آيات العذاب لهدف معين وهـــو الإصلاح، وحين نرى أن أحدًا قد غيّر سيرته وأصلح حاله نبدّل قرارنا الســـابق، ونلغي عقابه أصلاً، ونُـــري آية الرحمة في حقه، لأن هدفنا الإصلاح لا الإيذاء. لقد حصل هذا مرارًا في حياة النبي ﷺ، فمثلاً أخبره الله في القرآن عن كفار مكة أنهـــم لا يؤمنون (البقرة: ٧)، وكان هذا الخبر بمنـــزلة نبأ بعذابهم، ولكـــن الله تعالى ألغاه في حق كثير منهم ممن تولدت في قلوبهم خشية الله بعـــد الإنـــذار، فمنحهم نعمة الإيمان مكان العذاب.

هذه القضية واضحـــة تمامًا، ومع ذلـــك يتعثر الناس دائمًا في فهمها، لأنهم يظنون أن إلغاء الوعد كذب، مع أن إلغاء وعـــد العقاب لا يُعَدّ كذبًا، وإنمـــا إلغاء وعد العطاء يُعَدُّ كذبًا؛ فقد ورد في قواميس العربية: "الخُلْفُ في الوعد عند العرب كذبٌ وفي الوعيد كرمٌ (الأقرب).

إذن فالمـــراد الحقيقي من هذه الآية أننا نلغي أحيانًـــا الأنباء الإنذارية، فيعترض على ذلك الكفار، ولكن طعنهم باطل، لأن قرارنا هذا مبني على الحكمة، إذ ليس فيه هضمٌ لحق أحد حتى يكون مثارًا للاعتراض. ونظرًا إلى هذا المعنى ستفسَّر "الآية" هنا بمعـــنى الأنباء التحذيرية التي مر ذكرها من قبل.

هذا، ونظرًا إلى الســـياق وترتيب القرآن الكريم يمكن تفســـير هذه الآية بمعنى آخر هو أكثر انطباقًا هنا وهو كالآتي: لقد بيّنتُ من قبل أن هذه السورة تعالج موضوع ضرورة الوحي، ومن الأدلة التي ســـبق أن ذكرها الله بهذا الصدد مجيءُ الرسل في الماضي، كقول الله تعالى ﴿تالله لقد أرسَـــلْنا إلى أمـــم من قبلك﴾ (الآيـــة: ٦٤)، وقوله تعالى ﴿ويومَ نبعَثُ في كلِّ أُمّة شهيدًا عليهم مِن أنفســـهم﴾ (الآية:٩٠). ولما عجز الكفـــار أمام هذا البرهـــان قالوا: حسنًا، إذا كان الرسل قد بُعثوا في الماضي فيجـــب أن يكون تعليمهم وتعليم الإسلام واحدًا، ولكننا نجد

فيما يعلّمنا محمد أمورًا تخالف تعاليم الرسل السابقين؟ فثبت أنه كاذب، إذ كيف يمكن أن يقول الله لهؤلاء الرسل غير ما يقول لمحمد؟!

لقد رد الله على هـذا الزعم فقال ﴿والله أعلمُ بما ينـزِّل﴾.. أي أن اختلاف القرآن مـع بعض تعاليم الرسـل الأولين لا يعني أنه يعارض تلك التعاليم الحقة، وإنما سـببه أن حاجات هؤلاء تختلف عن حاجات أولئك، ولا بـأس في ذلك إذ من الممكن أن يعطي الشخص الواحد تعليمـات مختلفة لأنـاس مختلفين بالنظـر إلى حاجاتهم المختلفة، ولا يجـوز لأحد أبدًا أن يسـتنتج من ذلك أنه ما دامت الأحكام مختلفة فلا بد أن تكـون قد صدرت من جهات مختلفة لا من جهة واحدة. ذلك لأن الأحكام لا تختلف بسبب اختلاف مصدرها فقط، بل تختلف أيضًا بسبب اختلاف المخاطَبين مع كون مصدرها واحدًا، لأنها تصدر بالنظر إلى اسـتعداداتهم المختلفة. إذن فكان مـن واجب الكفار أن يروا ما إذا كان تعليم القرآن وفق مقتضيات العصر أم لا؟ فإذا توافر فيه هذا الشـرط أصبح الاختلاف في تعليمه وتعليمات الأولين دليلاً على أن اللهَ عالِـمَ الغيب هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ، وليس أن الذي أنزل الوحي على محمد هو غيرُ من أنـزل الوحي على الأنبياء السابقين.

هذا المعنى الأخير يتماشى مع الآية التالية أيضًا، لذلك أراه أصح المعاني المذكورة. فتؤخـذ كلمة "الآية" هنـا بمعنى الكتـاب؛ لأن الكتاب السـماوي أيضًا آيةٌ أي معجزة، بل إن كتـب الأنبيـاء هي أكبر معجزاتهم.

الغريـب أن هذا الاعتراض لم يزل يتـردد على مر العصـور حيث لا ينفك الكتّاب المسـيحيون يقولون حتى اليـوم: إذا كان القرآن يدّعي بأنه مصدِّق لما بين يديه من الكتب السـماوية فلماذا يختلف معها إذن؟ فاختلافه مع الكتب السابقة يعني أن محمدًا قد اختلـق القرآن من عنده. ولما كان محمد غير ملمٍّ بالأسـفار السابقة فلذلك ذكر في القرآن عند اختلاقه أمـورًا تتعارض مع ما ورد في تلك الأسفار (تفسير القرآن لـِ "ويري": سورة البقرة الآية ٩٠).

هذا، وقد هرأ بعض المفسرين فقالوا أن في هذه الآية إشـارة تلك القصة الـتي تقول أن النبي ﷺ تلا سـورة النجم أمام الكفار، فألقى الشيطان بصوت عالٍ كلماتٍ في تلاوته ﷺ!

الحق أن هـذه القصة زائفة تمامًا، وسوف نثبت ذلك في محلها إن شاء الله تعالى. ولكن لو سـلّمنا جدلاً بصحتها فأيضًـا لا تثبُت لـتلك القصة أية صلة بهذه الآية، إذ يؤكد الله هنا أن الآية التي استُبدلت كانت من وحي الله تعالى، وأنه ﷻ نفسه قام بتبديلها، بينما يعترف أصحاب تلك القصة المنحولة بأن الشـيطان هـو الذي ألقى آيـات من عنده؛ فثبت من اعترافهم أيضًا أن لا علاقة لتلك القصة الملفقة بهذه الآية.

كمـا أن الآية التاليـة أيضًا تفنّد زعمهم الباطـل، إذ تقدم ردًّا ثانيًا على اعتـراض الكفار حيث تقول ﴿قُلْ نزّلـه روحُ القدس مِن ربك بالحق﴾. والظاهر أنه ليس في قول الله هذا أي ردّ على اعتراض الكفار القائل: لماذا قدّم محمد من قبل تعليمًا ينم عن الشـرك، ولماذا غيّره الآن. إن نزول روح القدس بالقرآن يمكن أن يكون دليـلاً على كون القرآن محفوظًا محميًـا، ولكن ليس فيه أية دلالة على أن الشيطان أدخل شيئًا من عنده في القرآن ثم قام الله تعالى بإلغاء ما ألقاه الشيطان في القرآن.